حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٥ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠١٧)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

رمز القمر دراسة تحليلية في نص (شجرة القمر) لنازك الملائكة

رائد جرادات *

قسم اللغة وآدابها – كلية الآداب
جامعـة الطفيلة التقنية

المستخلص

تهدف الدراسة الى تجلية رمز القمر في إحدى قصائد نازك الملائكة وهي قصيدة شجرة القمر، وجاءت الدراسة في قسمين :تمهيد نظري تناول الرمز لغة واصطلاحا ثم وروده في القران الكريم، والشعر القديم والحديث وكذلك في المسار النقدي القديم والحديث .

أما الجانب التطبيقي فقد عمل على كشف رمزية القمر في القصيدة من خلال الشواهد التطبيقية . وثم جاءت الخاتمة لتظهر أهم النتائج التي توصلت اليها الدراسة .

وقد اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي آلية للتعامل مع النص.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

الرّمز من أهمّ السمات الفنيّة التي تميّز النص الأدبي عامّة والشعري خاصة ، لما يتيحه من دلالات و أبعاد مختلفة، تبقى القراءات للنص ذات مستويات عدّة مفتوحة على التأويل تدخِل المتلقي في جدليّة مع فهم العام للنص، يفضي أحيانا إلى إحداث التّأويل المضطرب بفعل الرّموز التي تحملها مدلولاته.

الرمز لغة :

الرمز في اللغة يشير إلى مايأتي :

لقد شرح لسان العرب كلمة"الرمز" : ((الرّمز تصويت خفيّ باللسان كالهمس، و يكون تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ من غير إبانة بصوت و إنما هو إشارة بالشفتين وقيل الرّمز إشارة و إيحاء بالعينين و الحاجبين و الشفتين و الفم، و الرّمز في اللغة كما أشرت إليه ممّا يُبان بلفظ بأيّ شيء أشرت إليه بيد أو عين(...) ، و رمزته المرأة بعينها ترمزه رمزًا :غمزته)) [١]

و غير بعيد عن هذا المفهوم ما جاء حسب رأي الخليل بقوله :((تصويت خفيّ باللسان كالهمس أو إيحاء وإشارة بالعينين أو الحاجبين أو الشفتين)) [٢] فالرمز هنا بمعنى الهمس بالصوت والغمز بالحاجب،والأيماء بالشفة، على سبيل التعبير عن تلك الإشارات.

قال تعالى : ((قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ))[٣] وأوضح الحمصي معنى الرمز ((أن تعجز عن تكليمهم بغير علة، فلا تتفاهم معهم إلا بالإيحاء الإشارة)) [٤]

ويكتفي الرازي بقوله: ((الرمز الإشارة والإيماء بالشفتين والحاجب)) [٥]، ويقرن الوسيط الرمز بالكتابة الخفية في علم البيان . [٦]

أما ابن سيدة ((تصويت خفي في اللسان كالهمس وتكرر تحريك الشفتين بكلام غير مفهوم باللفظ (...) ومنه رمز انقبض وكثرت حركته ورزن ووقر وكان مبجلا معظما وكان أصيلا وفؤاده ضاق فهو رميز))[٧] .

فمفهوم الرمز لغة أداة لغوية تحمل وظائف جمالية عندما تسهم في تشكيل تجربة الشاعر على نحو مؤتلف مع مكونات النص [٨]، لذا توقف معناه اللغوي عند الإشارة والإيماء والإيحاء .

أما مفهوم الرمز اصطلاحا يحمل مفاهيم متعددة وله معان واسعة وذلك حسب الحقل المعرفي سواء العام والنفسي والاجتماعي وغيرها ومايهمنا ويعنيننا ونتوقف عنده هنا هو المفهوم الأدبي لمصطلح الرمز ، فقد اعتبره (أفلاطون) هو أداة التعبير عن الانطباعات النفسية، عن طريق الألغاز والتلميح بدلا من الأسلوب التقريري المباشر[٩] ونجده تبنى هذا الرأي لقاعته أن العقل عاجز عن الوصول إلى مكنونات النفس وخلجاتها، وأن العلم لايمكنه إشباع رغبة الإنسان لمعرفة روحانيات و أسرار الكون .وفي المقابل حدد ه(أرسطو) بالرموز اللغوية للأشياء ودلالاتها وأحيانا الدلالة تنوب عن الفاظ الرموز أي لمفهوم الأشياء الحسية أولا، ثم التجريدية المتعلقة بالحسَ ثانيا [١٠] وليس الهدف من وراء ذلك الرمز اللغوي أو الإشارة المحددَة لشيئ ما وإنما الألفاظ الشعرية المتكأ عليها في النص الأدبي كأدوات لغوية ذات وظائف جمالية ومدلولات، لها الأثر اللغوي والجمالي في شعور وإحساس المتلقي بحسب مرجعياته و تأويله لها، وهذا يتطلب قارئ مثقف .

فالرمز بمعناه العام هو ((الدلالة على ما وراء المعنى الظاهري، مع اعتبار المعنى الظاهري مقصودا أيضا))[١١] لأن الرمز ابن السياقات وهو سمة النص[١٢]

أما الرمز بحسب رأي الأيوبي ((عصور قديمة جدا لا يعرف مدارها التاريخي ولكنها شبه موحدة المعنى لدى الشعوب القديمة فهي عند اليونانيين،تدل على قطعة فخار أو خزف،تقدم إلى الزائر الغريب، علامة على حسن الضيافة .وتكون هذه القطعة - الهدية – صلة وصل بين العائلتين (...) وهي مشتقة من فعل يوناني يحمل معنى الرمز المشترك أي اشتراك شيئين في مجرى واحد، وتوحيدهما، وهذان الشيئان هما: الرمز ومعناه، أي الرامز والمرموز)) (١٣)

فالحداثة الأدبية تتبنى الرمز ومايكتنفه ويحيطه من ابهام و غموض بل وتلح عليه وتعتمد عليه عنصرا مميزا للنص اللغوي الأدبي بالعموم واشعري على وجه خاص ويعده (أدونيس) أي الرمز ((جوهرا أصيلا في الشعر ينشأ من اعتماد لغة مجازية خيالية ، تعبر عمَا تعجز عنه اللغة البشرية العادية)) (١٤) فتكأ النص الشعري الحديث على خاصية تقنية فنية تدعى الرمز بصورة جزئية أو كلية لها دلالات وابعاد في بناء النص الشعري الحداثة بتغيير واضح في تقنيات التص الشعري بوجه عام مما يترك اثرا على المتلقي باثارة الدهشة لديه وعلى الواقع الانساني المعاش وهي عدا انها الوظيفة الجمالية فهي الوظيفة التي يعمل من اجلها ويبحث عنها الأدب . فهو في الاصطلاح الأدبي ظاهرة فنية لافتة للنظر في شعرنا الحديث، وتقنية من تقنياته الحداثية، التي أسرف الشعراء في استخدامها، للتعبير عن تجاربهم وأفكارهم ومشاعرهم بطريقة غير مباشرة .

و ثمرة يقتطفها الشاعر من خلال إدراكه الحدسي للعلاقات العميقة والخفية بين الظواهر المادية وما يختبئ وراءها من قوانين كونية، ثم يوظف الطاقة الإيحائية المتولدة من التقاء الأشياء للكشف عن كنه تلك القوانين التي تضغط في ثناياها رائحة المعنى الذي يدعو إليه (١٥) .

وهو بلغة أخرى عبارة عن إشارة حسية مجازية لشيء لا يقع تحت الحواس (١٦) وأوضح الطرابلسي مفهوم الرمز بقوله : هو الكناية التي تتميز بشيئين : قلة الوسائط وخفاء المدلول. فهو درجة من الكناية قصوى ليست ببعيدة عن اللغز أحيانا (١٧) .

وقد استخدم سوسير لفظ الرمز بما يقابل الدال فنجده يقول ((أنَ العلامة لاتربط بين الشيئ والاسم بل بين المفهوم والصورة السمعية)) (١٨) ومن ثم فإنه قد اقصى الواقع الخارجي الذي تشير اليه العلامة (المرجع)وذلك كون العلامة عنده وحدة ثنائية من الصعب الفصل بينهما، وتنشأ الدلالة من الربط بين الوحدة الثنائية – الدال والمدلول – والعلاقة بينها اعتباطية، واتكأ الرومانسيون على الطبيعة ومظاهرها ودلالات رموزها في أدبهم وبذا أصبحت مظاهر الطبيعة رموزا للمكنونات الذاتية للنفس البشرية وما تخفيه من أحاسيس ومشاعر وهذا ما سنحاول كشفه في هذه الدراسة، فالرمز شيء حسي له وجود في ذاته بعيدا عن أي دلالة، ومن ناحية مرتبط بالثقافة والمرجعيات الحضارية ومن طقوس والمفاهيم العرفية للمجتمع، وكذلك بالحالة النفسية التي تنتاب الظروف الخاصة بالشاعر منتج نصه الإبداعي .

اما النقاد الغربيين فنجدهم توقفوا عند الرمز

جاك بيرك : ((الرمز يتشخص تشخيصات ضيقة مقيدة فهو يقيد نفسه ليوسع مداه، الرمز فيه نوع من التقبض والتشنج والتقلص وما دام يتقلص فان قوته التعبيرية أو الدلالية تزيد بمقدار تقلصه)) (١٩)

((إنَ مقدمة القصيدة- بصورة عامة– رصد لموضوعها، وإنَ مقدمة الفروسية تعبير عن إيثار لمصلحة قومية على مصلحته وإنَ مقدمة قصيدة المديح يسوقها الشاعر ليوجب حق القصد والقصيد على ممدوحه))(٢٠)

أما هيجل فيجعل من " الرمز " قيمة استنتاجيه بدل القيمة التماثلية أو التشابهية التي اختطها "كانت" فالاستنتاج في رأي هيجل يجمع بين مظاهر الكون وهو رمز الانسجام الكوني والوحدة الأساسية، فكل ما في الكون يتصل بعضه ببعض بواسطة صفاته أو بعض مظاهره.(٢١)

E.Friser: ((ليس الرمز شيئا أو إشارة تتحدد، ولكنه وسيلة فنية بها يسعنا أن نوحي كل شيء أو نعبر عن أي "حالة" من الحالات النفسية. كل ما في الكون ينزع أن يكون رمزا بعامل الفكر الذي يستوجد العلاقات المفاجئة بين العالم الخارجي والداخلي.....

إن الرموز مستند التنظيم الشعري الذي يتيح لنا ولوج ناحية من ذاتنا لا تبلغ الا بوسيلة الرمز ..)) (٢٢)

((ليس سترا للمقصود بقدر ما هو دعوة حرة للمتلقي كي يكتشف بنفسه كل ايحاءات الرمز اكتشافا يتفاوت فيه الناس بمقدار تفاوت ثقافاتهم واذواقهم ودرجة شعورهم قوة وعمقا)) (٢٣)

بول ريكورPaul Ricoeur ((وما يشهد على الطبيعة اللغوية للرّمز أنّ بالإمكان فعلا بناء دلالة الرّمز، أيضا نظريا تفسير بنيتها من خلال المعنى أو المغزى، و هكذا نستطيع أن نتحدّث في رموز مزدوجة المعنى، أو رموز ذات معانٍ،أوائل، أو ثوانٍ، غير أنّ البعد اللالغوي واضح وضوح البعد اللغوي(...) حيث- يحيل- العنصر اللغوي الرّمز دائما على شيء آخر)) (٢٤) باعتباره انحرافا عن المعنى الأساسي أو المعجمي، كما قد يتداخل مع أساليب القول التقليدية المتمثلة في الصّور البيانيّة من استعارة و مجاز ومن ثم يستمدّ قدرته على الدّلالة من خلال اتّكائه على عوالم أخرى كالدّين و التّراث و الأسطورة والمثيلوجيا و التّحليل النفسي.

وتحديد الرمز بمعناه الدقيق ((يستلزم مستوين: مستوى الأشياء الحسية أو الصور الحسية التي تؤخذ قالبا للرمز، ومستوى الحالات المعنوية المرموز إليها، وحين يندمج المستويان في عملية الإبداع تحصل على الرمز)) (٢٥)

وعلى هذا فإننا في الرمز الشعري لا نستطيع أن نستغني بالرمز عن المرموز إليه أو بعبارة أخرى لا نستطيع أن نستغني بالمعطيات اللاحسية – التي تتخذ رموزا – عن الحالات المعنوية التجريدية التي يرمز إليها بهذه المعطيات كما لا يمكن بالمقابل أن نستغني بالمرموز إليه عن الرمز، لأن الرمز كله غير قابل للتجزئة تغنى فيه الحالات المعنوية التجريدية في المعطيات الحسية التي تتخذ رموزا لها، كما تفقد المعطيات الحسية ماديتها وتتحول إلى دلالات تجريدية، والشاعر الذي يستخدم الرمز لا يقصد إلى معنى يخفيه ثم يحاول أن يعبر عنه بطريقة أخرى تنوب عنه، فإذا وجدنا المعنى المقصود استغنينا به عن العمل نفسه، إن الرموز لا تصنع بهذه الطريقة ... وبعبارة أخرى إن المستوى الحرفي أو الظاهر لا يسخر طريقة مصطنعة واضحة للتعبير عن معنى آخر، المعنى الثاني ينمو نموا باطنيا من المعنى الأول.(٢٦)

القمر في القرآن

فرموز الطبيعية ظواهرها لها حضور واضح وجلي في الشعر العربي الحديث وفي الأدب العربي على مر العصور وآيات كثيرة وردت في القران الكريم تتحدث عن رموز الطبيعة وظواهرها في الكون ومنها السماء والكواكب وحركتها والنجوم والقمر والبحر والصحراء، وكان للأخير حضور في مواضع عديدة حيث ورد ذكره في (٢٧) موضع

بلفظ القمر ومرة بلفظ الأهلة [٢٧]

واقسم الله في ثلاث آيات، كما أكد القران على وظيفة القمر كجزء من مكونات الكون بحركته في مداره وديمومتها وانتظامها حول الأرض واعتماد الإنسان عليها لوضع التقويم واحتساب الزمن، قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)) [٢٨]

فالشمس ذاتية الإضاءة والقمر نور، وتم تأكيد ذلك في موضع آخر من القران بقوله تعالى : ((تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)) [٢٩]

وكذلك قوله:((وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)) [٣٠]

أما حركته فقد وردت في قوله تعالى : ((لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)) [٣١]

مما يؤكد على انتظامه وديمومته وتسخيره لخدمة البشرية، وقوله تعالى : ((وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)) [٣٢]

((اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)) [٣٣]

((وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) [٣٤]

قال ابن سيده: والقمر يكون في الليلة الثالثة من الشهر، وهو مشتق من القمر،، والجمع أقمار وأقمر صار قمرا

أما الجوهري: القمر بعد ثلاث إلى آخر الشهر يسمى قمرا لبياضه .. والقمران : الشمس والقمر [٣٥]

أما اصطلاحا في المنظور النقدي والأدبي فأنني لم أجد من خلال بحثي ممن هم من النقاد من وضع للقمر وصفا جامعا مانعا يحدد ماهيته وكيفيته في النص اللغوي الأدبي، فهو الجرم السماوي الذي اتكأ عليه الأدباء والشعراء رمزا أو صوره، مستندين في ذلك إلى ثقافاتهم الشخصية والمجتمعية العرفية ومعتقداتهم المتوارثة جيل عن جيل، فللبيئة أثر كبير في حياة الإنسان حيث يجد نفسه أمام واقع معاش بإرادته أو بغير ذلك، فالطبيعة وقوانينها ونواميسها تفرض نفسها على البشرية والإنسان بتجربته مع البيئة المحيطة، فوجد لازما عليه أن يتقرب منها اتقاء لظواهرها الطبيعية، وذلك بحسب معتقداته الميثولوجية المستمدة من بيئته ، فكثير من الآلهة والأساطير والخرافات والمعتقدات والظواهر الطبيعية التي قدَست وعبدت هي كانت بنت البيئة المحيطة به، وإن اختلفت أسماؤها. وكان القمر رمزا لأكثرها بل وأكثرها تأثيرا ونواة لتلك العبادات والمعتقدات لما يمثله من حضور راسخ في حياة البشرية إذ تغلغلت به قلوبهم وأبصارهم وارتبطت به منذ الأزل . فكان لابد من التصالح معها والتقرب إليها بالعبادة وتقديم القرابين، ونجد ذلك واضحا عند الشعوب القديمة السومرية والبابلية والآشورية في بلاد الرافدين، والفينيقية والكنعانية التي استوطنت سوريا والفرعونية في مصر وغيرها من صينيه ويونانية وإفريقية وهندية ويهودية .

أما القمر عند العرب قبل الإسلام فكان له حضور مميز في حياتهم ومعتقداتهم وعباداتهم وعن غيره من الآلهة سواء أكانت الأجرام السماوية أم العبادات الوثنية، وهذا ما تم نفيه لاحقا بمجيء الرسالة المحمدية.

قال تعالى : ((وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا)) [٣٦]

وللقمر العديد من الأسماء في البيئة العربية قبل الإسلام منها ((ورخ وسين وشهر، فهذه الأسماء غالبا ما نجدها في مختلف النقوش سواء أكانت في جنوب بلاد العرب أو بلاد الحبشة، أو في شمال البلاد العربية)) (٣٧).

فللقمر في البيئة العربية قبل الإسلام منزلة يحتلها من قد سبقهم به ((الإله الرئيس، الذي ينفرد بالكثرة المطلقة في الأسماء والألقاب في الأساطير وفي الحياة اليومية وفي الطقوس الدينية وفي التقويم وفي أسماء الأعلام نجده ظاهرا قويا مهيمنا على سائر نواحي الحياة السياسية والدينية)) (٣٨) .

وعن القمر ومنازله فهي بحسب رأي ابن كثير : ((به تعرف الشهور، وبالشمس تعرف الليالي والأيام وبذلك تعرف السنين والأعوام)). (٣٩)

وجاء الدليل القطعي على أهمية التوقيت الذي يعتمد على القمر بقوله تعالى :((يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) (٤٠) .

((أحوال الأهلة في زيادتها ونقصانها هي مواقيت للناس والحج، أي هي مواقيت وقت يحتاج الناس إلى مقاديرها في صومهم وفطرهم وعدة نسائهم ومحل ديونهم وحجهم، فبين سبحانه أن وجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه ما تعلق ذلك من مصالح الدين والدنيا، لان الهلال لو كان مدورا أبدا مثل الشمس لم يكن التوقيت به ...، لأنه سبحانه نص على أن الأهلة هي المعتبرة في المواقيت والدلالة على الشهور)) (٤١) .

لفت القمر نظر الشاعر العربي منذ زمن بعيد فاحتل في الشعر العربي على مر العصور المختلفة مكانة مميزه في البنية الموضوعية للنص الشعري العربي من خلال اتكاء الشاعر العربي على القمر بمراحله المختلفة ودلالاته وأسمائه ورموزه باعتباره جزءا من مكونات الكون وطبيعته وأخذ يتماهى ويتفاعل في التجربة الشعرية للشاعر العربي في عصر ما قبل الإسلام يتلون بها، حيث إنَ الملاحظ رمز القمر في التجربة الشعرية العربية كان انعكاسا للعلاقة الجدلية ما بين الشاعر والقمر والبيئة العربية في كثير من الأحيان فجاء رمز القمر في النصوص الشعرية العربية الجاهلية مستمدة من الرواسب الميثولوجية والمعتقدات الدينية السائدة آنذاك فلم يكن عنصرا من عناصر الطبيعة بل تجاوز مكانته إلى ظاهرة مقدسة كما اوضحنا سابقا، مطابقا لتلك العلاقة الطبيعية أو مجافيا ومعاكسا لدلالة رمز القمر التي حاول البعض إيجادها في بنية النص الشعري وهي دلالة جاءت مختلفة عما تعود عليه المتلقي من تشبيه الأنثى بالقمر مثلا وتلك الدلالة للمرموز هي التي كانت الأساس فأختلف الرمز ودلالاته وتغيرت وتنوعت باختلاف ما رسمه الشاعر من بعد نفسي بينه وبين رمز القمر ودلالاته، ففي الشعر الجاهلي نجد مجمل دلالات رمز القمر بما جاء به الشعراء رمزا للتعبد والتقديس ورمزا للجمال ورمزا للحرب، ورمزا للمدح والفخر و... و... واما الدلالة الشائعة في نصوص الشعر الجاهلي كانت من نصيب الدلالة الغزلية فوظفه الشاعر الجاهلي بدلالاته المختلفة لإيضاح وإبراز جوانب جمالية للأنثى المحبوبة.

على أننا لا نجد نص شعري عربي قديم قد توقف بناء البنية الموضوعية له بشكل كامل على موضوع القمر إلا ما ندر، وكذلك الأمر بالدراسات النقدية القديمة لرمز القمر، وإنما ورد في النصوص الشعرية العربية في عصور الأدب المختلفة كبنية وصفية مشتركة مع غيرها ومكملة لغيره .

وبدت فقلت البدر ليلة تمه
قد قلدته نجومها الجوزاء
بسمت فلاح ضياء لؤلؤ ثغرها
فيه لداء العاشقين شفاء
سجدت تعظم ربها فتمايلت
لجلالها أربابنا العظماء (٤٢)

واتكأ على رمز القمر الشاعر عبد الله بن عجلان للدلالة الدينية المقدسة للأنثى التي رمز بها إلى المكانة الرفيعة في جمالها وجلالها :

قد طال شوقي وعادني طربي من ذكر خودٍ كريمة الحسب
غراءُ مِثلُ الهلال صورتها أو مثلُ تمثال صورة الراهبِ (٤٣)

وقال جميل بثينة (٤٤) :

هي البدر حسنا والنساء كواكب
وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر

والكثير من الشعراء في عصر ما قبل الإسلام ممن لجأ إلى رمز القمر في شعره ولذا كان القمر مدارا كثير من قصائدهم فالمحبين يتسللون في ظلمة الحالكة خوفا ان يكتشف أمرهم تحت ستار الليل خشية ان يراهم احد فتتواصل العيون وتمتزج الأرواح، وبينما هم كذلك وعلى هذه الحال لا يشاركهم خلوتهم تلك إلا ذلك المخلوق الذي يسطع في السماء لينير لهم طريق الوصول والعودة من حيث أتوا، ولذا ارتبط بالمحبوب ارتباطا وثيقا، لأنه شاركه أروع اللحظات وقاسمه مشاعره المتدفقة هذا في حالة وهناك حالة مغايرة تماما.

فالليل يستر كل من يفضي إليه بسره، و كل من يناجيه، لا يفضح سرا ولا يهتك سترا، لذلك وجد العشاق والمحبين في الليل ملاذا آمنا للتحدث مع محبوبيهم ومعشوقيهم، حتى عرف الليل بالساتر على العشاق والمحبين .. فإذا ذكر الليل ذكر العاشق الولهان، والمحب الخاضع لمحبوبه .

أما في الشعر الحديث الذي يتكأ في تكوين نصوصه الشعرية على الكثير من الرموز والأساطير والخرافات والميثولوجيا، نجده قد توقف بعلاقته مع رمز القمر بجدلية جديدة مختلفة بعض الشيء عن ما جاء به زملائه من الشعراء في العصور الأدبية القديمة.

ففي العصر الحديث لم يعد رمز القمر بمدلولاته التي وجدت قديما في العصور الأدبية القديمة بل اخذ الشاعر على عاتقه منح القمر دلالات ورموز وصور جاءت مشكلة صدمة للمتلقي عما كانت عليه تلك الدلالات في العصور الأدبية القديمة .

فقد اتكأ العديد من الأدباء والشعراء على القمر بوصفه رمزا ووصفوه بأوصاف مختلفة في نصوصهم الأدبية، فقد كان من أهم مظاهر الطبيعة وظواهرها التي تأملها الشاعر العربي واستلمها وتناولها في أعماله، خاصة ما كان منها في موضوعات جمال المحبوب ووصفه والغزل به والمدح وما كان منها في دلالات ورموز كشف الخيانة، وذلك بإضاءة سواد الليل، وقد ظل ذلك الإعجاب والحوار المتبادل بين الشاعر متتبع النص الشعري الإبداعي والقمر بعلاقة جدلية جذرية أزلية، متكأ الشاعر في إنتاج بنيته الموضوعية للنص على رمز القمر، فقد ورد ذلك واتضح في كثير من النصوص الشعرية الوجدانية ليس هذا فحسب بل في الأغاني العاطفية، واعتمد عليه أيضا في مدلولات أخرى مختلفة في داخل النص منها إضاءة الطريق أمام لقاءات العاشقين حيث كان يؤنسهم القمر

ويهديهم نوره، وعند الإقدام على جرائم السرقة والقتل في جنح الليل، وكان لرمز القمر يتصدر الكثير من عناوين الأعمال الأدبية العربية منها : مدينة القمر[٤٥]، ألف وجه للقمر[٤٦]، باب القمر[٤٧]، حديث القمر[٤٨] مقتل القمر[٤٩] وغيرها.

ففي النص الشعري السيابي اتكأ على القمر في منح الأمل وذلك في نأيه وفسح المجال للشمس للاقتراب .

يقول السياب :

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر[٥٠]

فالغابة هنا رمز للظلم للحزن والسحر رمز للأمل والتفاؤل، فقد استطاع السياب في نصه الجمع بين المتناقضات من خلال مفردتي الغابة والسحر ويعود ليكرر جمع المتناقضات في كلمة واحدة بالاتكاء على مفردة (ينأى) وهي الابتعاد والافتراق والدلالة المعاكسة لها هي يقترب، فالذي نأى هو القمر والذي اقترب هي الشمس، فعندما ينأى القمر فالليل والظلام ينأى معه، وبذلك تقترب الشمس .

أما عند نازك الملائكة فنجد توظيفها لرمز القمر في بنية نصها الشعري جاء بتقنيات شعرية مختلفة نوعا ما عن السياب في نصه الشعري ومثال ذلك ما نجده في (شجرة القمر) التي أقامت بناء البنية الموضوعية للنص على رمز القمر مستفيدة وموظفة لتقنيات الحكاية الشعبية والطفولة وحب المغامرة والأسطورة لتحدث تداخلا وتماهيا بين الأجناس الأدبية الشعرية والنثرية في إخراج نصها الشعري للوجود .

على قمة من جبال الشمال كساها الصنوبر
وغلفها أفق مخملي وجو معنبر. [٥١]

وهو مفتتح النص القصصي كان يا مكان في قديم الزمان ...وتحديد للمكان وطبيعته فمبناها القصصي متوازن ومشحون بأجواء المغامرة ومن الملاحظ أنَ النص احتوى على مقومات القص من حيث توافر العناصر،الزمان والمكان والشخوص والأحداث والبداية والصراع والحبكة والنهاية وعدا ذلك الاتكاء على تقنية الأسطورة في البناء الذي يؤدي إلى الإثارة والمتعة وذلك في أجواء طفولية وشعرية هادئة وجلة حتى لنشعر معها أنَ الشعر ((حالة محفوظة من الطفولة، وهي ميزة لم تقدمها الطبيعة لكل العالم،فقط الشاعر عرف كيف يحفظ في ذاته شيئا من روحه الطفولية والحياة النفسية الطفولية هي نوع من التزويد العاطفي))[٥٢]

هنالك كان يعيش غلام بعيد الخيال[٥٣]

ان المكان في البناء القصصي عند نازك لم يكن يعبر عن عالم أسطوري أو خيالي بل منتزع من شمال العراق فالنص الشعري في أصله حكاية قدمتها نازك الملائكة لابنة عمتها ذات السنوات الثمانية بتقديمها بطل القصة وشيئا عن ملامحه وأحلامه متكأ في ذلك على الفعل الماضي (كان) والجمل النحوية القصيرة التي تعتمد التكثيف والإيجاز والاقتصاد اللغوي في إيجاد متعة النص :

إذا جاع يأكل ضوء النجوم ولون الجبال
وكان غلاما غريب الرؤى غامض الذكريات
وكان يطارد عطر الربى وصدى الأغنيات
وكانت خلاصة أحلامه أن يصيد القمر[٥٤]

فنجد نازك الملائكة قد استغرقت كثيرا في وصف مكان الأحداث وبطل القصة الغرائبي الطباع والأحلام في رغبته باصطياد القمر ويودعه قفصا من ندى وشذى وزهر

وكان يقضي المساء يحوك الشباك ويحلم
يوسده عشب بارد عند نبع مغمغم
ويسهر يرمق وادي المساء ووجه القمر(٥٥)

اقامت نازك نصها الشعري على هيكل بناء معماري هندسي يعتمد ذلك على النص العنقودي المكون من مجموعة سباعية من القصائد القصار وبخاتمة مغلقة .

إنه بناء يتميز بوحدة عضوية تركزت حول رمز القمر فمركز جاذبيته محدد هو حدث (اصطياد القمر) ولا تقتصر نازك على هذا المركز وإنما توظف أحداث أسطورية رمزية موازية تستسقيها من الموروث الإنساني الحكائي ومن حبها للطبيعة ومن خيالها وبذلك يتماهى الخاص بالعام والتراثي الإنساني بالمتخيل في انتاج بناء لغوي إبداعي قصصي رمزي أسطوري وهذا التنوع من البناء للنص الشعري متوقع من بناء معماري عنقودي وتنتقل الشاعرة من وصف للمكان وللغلام إلى أحداث غرائبية لغلام عجيب حالم في محاولته صيد القمر :

وفي ذات صيف تسلّل هذا الغلام مساء
خفيف الخطى،عاري القدمين، مشوق الدماء
وسار وئيدا وئيدا الى قمة شاهقة
وخبأ هيكله في حمى دوحه باسقه
وراح يعد الثواني بقلب يدق يدق
وينتظر القمر العذب والليل نشوان طلق. (٥٦)

اخذ الغلام الغرائبي الحالم بالانتظار،ينتظر القمر حتى إذا اقترب طوقه الغلام العاشق الجبلي كما تسميه الشاعرة واخفاه في كوخه وحينئذ يتحقق حلم الغلام بمسك القمر.

وفي لحظة رفع الشرق استاره المعتمة
ولاح الجبين اللجيني والفتنة الملهمة
وكان قريبا ولم ير صيادنا الباسما
على التل فانساب بذرع افق الدجى حالما
وطوقه العاشق الجبلي ومس جيبنه .....
.....
واخفاه في كوخه لا يمل اليه النظر
اذلك حلم ؟ كيف وقد صاد .. صاد القمر؟ (٥٧)

الغلام الغرائبي الحالم تحقق له صيد القمر،وتبدأ الحبكة ثم الصراع ومسبباته فالقمر لم يكن معشوقا عند الحالم الغرائبي فحسب بل أتفاجأ أن الناس كلها تحب محبوبه القمر وتريده كما تقول الشاعرة ذاتها. (٥٨)

فالقمر حق للجميع يصل الى درجة التقديس وسرقته توجب العقاب . وهنا يثور أهل القرية (كما ثارت الآلهة يوم قام برومثيوس بسرقة النار المقدسة) فالدنيا لا تسمح لاحد ان يمتلكه ويحتكره وهنا يثور الرعاة والصيادين طالبين استرجاع الأسير لأنَ القمر رمز للحق العام كما ترى نازك. (٥٩)

ويقتحمون على الغلام كوخه مطالبين بحقهم العام في عودة القمر بوصفه ملكا للجميع:

وفي القرية الجبلية في حلقات السمر
وفي كل حقل تنادى المنادون ((أين القمر؟))
((وأين أشعته المخملية في مرجنا؟))
((وأين غلائله السحبية في حقلنا؟))[٦٠]

وكذلك :

نادت صبايا الجبال جميعا ((نريد القمر!))
فرددت القنن السامقات ((نريد القمر))[٦١]

فالقمر صديق واحد مكونات الكون والطبيعة و سميرها وهو رمز للثورة على الظلم والاستبداد :

وثاروا وساروا إلى حيث يسكن ذاك الغلام
ودقوا على الباب في ثورة ولظى واضطرام
وجنوا جنونا ولم يبق فوق المراقي حجر
ولا صخرة لم يعيدا الصراخ : ((نريد القمر))[٦٢]

الغلام الحالم يصغي لمطالب الثوار في هذه الحكاية الشعرية التي لا تعرف مكان القمر حتى أصبحت مكونات الطبيعة وموجوداتها وتردد صوته الداخلي بضرورة إظهار القمر:

وطاف الصدى بجناحيه حول الجبال وطار
.....
وهز السكون ((وصاح :لماذا سرقت القمر؟))
فجن المساء ونادى ((أين خبأت القمر؟))[٦٣]

فأمام مطالب وصراخ الجماهير من ناس ومكونات الطبيعة من حجر وشجر وغيرها لم يصدق الغلام أن القمر في كوخه وان محبي القمر يبكون عليه يحتضن الغلام.

غير عابئ هذا الحالم الغرائبي بالرعاة /الجماهير الثائرة ولكنه بعد حين يتسأل أين يخبئ هذا الكنز الثمين عن أعين الصائدين وصارت الأسئلة تحاصره فالحدث بلغ ذروته والأزمة اشتدت على الحالم الغرائبي السارق، ويهز مكونات الطبيعة وسكونها وصياح الجماهير لماذا سرقت أيها الغلام الغرائبي الحالم القمر والأهم أين خبأته؟ وفي ذروة الصراع يبحث عن حل الغلام فيعمد إلى دفن القمر مستاء ضجرا لاعنا حظه ودموعه تتصبب وتنجح الشاعرة في استبطان مكنونات الحالم الغرائبي في مختلف حالاته

وفي الكوخ كان الغلام يضم الأسير الضحوك
ويمطره بالدموع ويصرخ : ((لن يأخذوك؟))
وكان هتاف الرعاة يشق إليه السكون
فيسقط من روحه في هوى من أسىً وجنون
وراح يغني لملهمه في جوى وانفعال
ويخلط بالدمع والملح ترنيمة للجمال
ولكن صوت الجماهير زاد جنونا وثورة
وعاد يقلب حلم الغلام على حد شفرة

ويهبط في سمعه كالرصاص ثقيل المرور
ويهدم ما شيدته خيالاته من قصور
وأين سيهرب ؟ أين يخبئ هذا الجبين ؟
ويحميه من سورة الشوق في أعين الصائدين
وفي أيَ شيء يلفَ أشعته ياسماء
وأضواؤه تتحدى المخابئ في كبرياء؟
ومرت دقائق منفعلات وقلب الغلام
تمزقه مدية الشك في حيرة وظلام
وجاء بفأس وراح يشق الثرى في ضجر
ليدفن هذا الأسير الجميل وأين المفر؟
وراح يودعه في اختناق ويغسل لونه
بأدمعه ويصيب على حظه ألف لعنه. (٦٤)

لنازك الملائكة أسلوب مميز وواضح في تشكيل الأحداث وقولبتها ومتابعة حركتها في تسلسل سلس ومنطقي زمني حتى نهايتها وفي الوقوف على الجو العام ووصفه

فنازك الملائكة قصصية أعارت المنولوج أهمية ورجحانا على بقية أجزاء النص ولم تجعل من الحدث العام في نصها الشعري يتوقف أو يطغى على بقية الأجزاء في نصها فأحسنت في سبكه فلم تفتر عن المتابعة ولم يضعف كذلك الأمر الشوق في ملاحظة الأحداث حتى النهاية ولم تفرق في الوصف لتصوير الجو على حساب حركة الأحداث، وإنما وازنت بين الأجزاء إلى حدّ ما.

لذا نجد الحالم الغرائبي استرقته فكرة حالمة أخرى هي (يدفن القمر في الأرض ليستنبت منه شجرة سامقة لا مثيل لها بين الشجر، لان ثمرها المتدلي من أغصانها ليس إلا أقمارا فضية متألقة) (٦٥)

أخيرا استطاع الرعاة اقتحام الكوخ وهو مؤشر لاقتراب القصة من نهايتها وهو أمر طبيعي لنص شعري عنقودي كما أشرنا سابقا له خاتمه :

وثاروا وساروا إلى حيث يسكن ذاك الغلام
ودقوا على الباب في ثورة ولظى واضطرام (٦٦)

وبعدما استطاع الثوار الدخول إلى الكوخ وجدوا الغلام الحالم البريء مستغرقا في نومه :

واما الغلام فقد نام مستغرقا في حلم(٦٧)

أما أوصاف بطلنا الحالم الغرائبي فقد رسمت لنا الشاعرة القاصَة إن صح التعبير بلغة مكثفة أوصافه لإيضاح الصورة للمتلقي في طبيعة هذا الغلام البري وأوصافه التي من الصعوبة بمكان ان يسرق القمر :

جدائله الشقر منسدلات على كتفيه
وطيف ابتسام تلكأ يحلم في شفتيه
ووجه كأن أبولون شربه بالوضاءه
وإغفاءة هي سر الصفاء ومعنى البراءه (٦٨)

رسم دقيق لغلام حالم غرائبي بريشة شاعرة قصصية اتقنت تقنيات شعرية قصصيه عالية بلغة بسيطة لتلحق اللوحة السابقة بلوحة جديدة هي رسم حيرة الرعاة من خلال اثارة الدهشة والتساؤلات والحيرة التي رسمتها الشاعرة القاصة على وجوه الرعاة لتولد عند هؤلاء الرعاة الصدمة :

فماذا رأوا ؟ اي يأس عميق وأية صدمة

.....

وحار الرعاة أيسرق هذا البريء القمر

ألم يخطئوا الاتهام ترى ؟ ثم .... أين القمر (٦٩)

أيعقل بأن الغلام الحالم الغرائبي بما يمتلكه من اوصاف بريئة يسرق القمر (أيسرق هذا البريء القمر)

ربما أخطأوا الاتهام ؟ لكن السؤال المفترض بطبيعة الحال والأحداث القصصية في النص الشعري أين القمر (ثم ... أين القمر) إذا لم يسرق هذا الغلام البريء القمر وأصبح مستبعدا لأوصاف براءته إذا والحال كذلك أين القمر، لذلك نجد رسم مشهد الحيرة ما زالت الشاعرة القاصة تتكأ عليه في رسم لوحاتها الشعرية القصصية إن صح التعبير :

وعادوا حيارى لأكواخهم يسألون الظلام(٧٠)

لذا نجد التساؤلات من خلال الاستفهام الاستنكاري القائم على المفارقة ما زال قائم بقولها :

عن القمر العبقري أتاه وراء الغمام
أم اختطفته السعالي وأخفته خلف الغيوم
وراحت تكسره لتغذي ضياء النجوم؟
أم ابتلع البحر جبهته البضَة الزنبقية؟
وأخفاه في قلعة من لآلئ بيض نقيه ؟
أم الريح لم يبق طول التنقل من خُفّها
سوى مزق خلقات فأخفته في كهفها
لتصنع خفين من جلده اللين اللبني
وأشرطة من سناه لهيكلها الزنبقي(٧١)

كل تلك الاستفهامات التساؤلات الاستنكارية التي تنفي عن الغلام البريء تهمة السرقة وظفتها الشاعرة القاصة في رسم مشهد الحيرة الذي وقع به الرعاة الثوار الباحثين عن القمر الذي هو ملك الجميع ومن يريد امتلاك القمر فهو سارق (ربما قامت الشاعرة بتقليد القصيدة الجاهلية من حيث البناء المعماري في رسم لوحات شبيهة بلوحات القصيدة الجاهلية لكن هذا البناء المعماري جاء بمضمون مختلف عن الاطلال والطعن).

ونرى كل المشاهد واللوحات السابقة قد رسمتها الشاعرة القاصة في أجواء الليل (الظلام) وهو المشهد البيئة الأولى للمشهد الأول من نصها الشعري:

وفي ذات صيف تسلل هذا الغلام مساء

.....

وفي لحظه رفع الشرق استاره المعتمة(٧٢)

.....

فلا شيء في الكوخ غير السكون وغير الظُلم
وعادوا حيارى لأكواخهم يسألون الظلام(٧٣)

ثم تنتقل الشاعرة إلى رسم المشهد الآخر من نصها الشعري القصصي القائم على الضياء والتفاعل والحرية والسلام فيتكأ على رمز القمر :

وجاء الصباح بليل الخطى قمري البرود
يتوج جبهته الغسقية عقد ورود
يجوب الفضاء وفي كفه دورق من جمال
يرش الندى والبرودة والضوء فوق الجبال
.....
ورش عليه الضياء وقطر الندى والسلام
.....
وهب الغلام من النوم منتعشا في انتشاء
فماذا رأى ؟ يا ندى ؟ يا شذى ؟ يا روئ؟ يا سماء ؟(٧٤)

فالغلام الحالم الغرائبي يستيقظ من نومه ليرى شجرة (سدرة) يباركها القمر بضوئه ومن كل فرع فيها تدلى (قمر)

هنالك في الساحة الطحلبية حيث الصباح
تعود ألا يرى غير عشب رعته الرياح
هنالك كانت تقوم وتمتد في الجو سدره
جدائلها كسيت خضرة خصبه اللون ثره
رعاها المساء وغذت شذاها شفاه القمر
وارضعها وضوؤه المختفي في التراب العطر
واشرب أغصانها الناعمات رحيق شذاه
وصب على لونها فضة عصرت من سناه
وأثمارها ؟ أي لون غريب وأي ابتكار(٧٥)

وهنا تستغرق نازك الشاعرة القصصية في وصف تلك السدرة وهي إحدى مكونات الطبيعة في العراق واتى الرمز الذي اتكأت عليه (القمر) وتطيل في الوصف لأهمية ذلك في إضاءة الحدث وإيضاح اثار القمر الرمز على الشجرة (السدرة) في إضفاء صفات جديدة لها لتصبح مميزه تتسم بالتجديد:

لقد حار فيها ضياء النجوم وغار النهار
وجنت بها الشجرات المقلدة الجامده
فمنذ عصور وأثمارها لم تزل واحده
فمن أي أرض خيالية رضعت ؟ أي تربه
سقتها الجمال المفضض؟ اي ينابيع عذبه؟
وأية معجزة لم يصلها خيال الشجر
جميعا ؟ فمن كل غصن طري تدلى قمر (٧٦)

فكانت فكرة الغلام الحالم البريء الغرائبي هي دفن القمر في الأرض ومكانه الطبيعي في السماء ليستنبت منه شجرة سامقه لا مثيل لها بين الشجر، لان ثمرها المتدلي من أغصانها ليس إلا أقمارا فضيه متألقة وهذا ما تم له فتبقى السدرة السامقة التي لا مثيل لها بين الشجر، رمزا للأديب (الفنان) أي أديب يتناول الطبيعة ويبدع منها فنه، فإذا كان في السماء قمر يملكه الوجود كله، فأن في وسع الفنان الذي يحب القمر ان يصنع نماذج منه في شكل نص لغوي شعري أو لوحات ورسومات

وتنتقل الشاعرة القاصة بالمشهد إلى لوحة الختام فبدأت نصها الشعري القصصي (كان يا مكان) وانهت قصتها الشعرية خاتمة قصصية (مرت عصور) لتنقلنا إلى الواقع المعاش لتخرجنا من حلم الطفولة وخيالها فانتهى زمن الأحلام :

ومرت عصور وما عاد أهل القرى يذكرون
حياة الغلام الغريب الرؤى العبقري الجنون
وحتى الجبال طوى سره وتناست خطاه
وأقماره وأناشيده واندفاع مناه(٧٧)

بحسب رأي عز الدين اسماعيل القصيدة حسب الخاتمة تقسم الى :
البناء الهيكلي المعماري لهذا النص الشعري قد ختمته الشاعرة بأسلوب تقليدي .

وكيف أعاد لأهل القرى الوالهين القمر
وأطلقه في السماء كما كان دون مقر
يجوب الفضاء وينثر فيه الندى والبروده
وشبه ضباب تحدر من أمسيات بعيده
وهمسا كأصداء نبع تحدر في عمق كهف
يؤكد ان الغلام وقصته حلم صيف(٧٨)

فقد كانت نازك الملائكة في خاتمتها لنصها الشعري القصصي تتكأ أيضا على لوحات ورسومات وأصوات تشعر المتلقي الطفل بانتهاء القصة وهو تقليد للأمهات والجدات في رواية الحكايات وما يصاحبها ذلك من رسم لوحات وتلوين أصوات تتناسب وطبيعة الاحداث في النص القصصي

وشبه ضباب تحدر من أمسيات بعيدة
وهمسا كأصداء نبع تحدر في عمق كهف .

أنتجت لنا نازك الملائكة نص شعري قصصي (شجرة القمر) يمتاز ببناء معماري هيكلي متجذر في الموروث الشعري العربي التقليدي ومتكأ على رمزية معاصره حديثة فيشكل رمز القمر عمدتها يهب الامل والحياة الحب فهو ملاذا للعاشقين فالقمر يتقابل مع الليل فكلاهما من مكونات الكون الطبيعية فيمثلان صورة المعشوق في حين اتكأت في تشكيل نصها على الغلام رمزا لها، فهي مغرمة بالطبيعة

أما الرعاة فرمزت بهم الى الحرية والمطالبة بالحق العام، فإن ثورة هؤلاء لانتزاع القمر هي تعبير رمزي عن الرغبة في عودة الحق إلى أهله ومن ثم فالقمر حق لهم .

ومن ثم نجد أن الشجرة غذاء روحيا للقرية كلها وليست حكرا على أحد ولما كانت دلالات الرمز محكومة بسياقاتها في النص الشعري فذاكرة الكلمة دلاليا قد لا تكون مرتبطة بموقف واحد وهو أمر معروف فالقمر له دلالات أخرى في مقابلة الليل وهي دلالة تفضيل القمر على الليل، ومن ثم هناك الصورة الرمزية التي تتوازى مدلولاتها بشكل مطلق مع دوالها الرمزية وحينئذ تكون كل عناصر الحكاية الموظفة مجموعة من الاستعارات الرمزية، وقصيدة (شجرة القمر) بمعناها الحكائي ذي المسحة الأسطورية الشعبية خير مثال على هذا الضرب من الصور الرمزية ففي هذه القصيدة نصادف عالمين متقابلين :

أولهما : تمثله شخصية الغلام الذي اصطاد القمر وأودعه كوخه .

وثانيهما : عالم الجماهير التي تطالب الغلام بإرجاعه .

وهناك صفتان مرتبطتان بهذين العالمين مما يساعد على تأويل الموضوع المرموز إليه بكيفية مقنعة ولا تحمل الافتراض . ذلك أن الغلام الذي يصطاد القمر يقترب فعله من فعل (بروميثيوس) في حين يقترب فعل الجماهير من فعل الآلهة التي تغضب على الغلام وتطالبه بإعادة القمر لأنه ملك للجميع .

أما القمر فيشكل رمزا يهب الحب والعطاء والأمل والجمال، وقد نجحت الشاعرة كثيرا حين حملت الغلام دلالة رمزية والقمر الذي اصطاده دلالة رمزية أخرى . فالقمر بعد أن دفنه الغلام ليخفيه عن أهل القرية الذين ثاروا عليه مطالبين باسترداد القمر بوصفه حقا عاما ينبغي أن يتمتع به الجميع، هذا القمر بعد أن عانقته أحشاء الأرض، أنبت شجرة تضيء أقمارا عدة لا قمرا واحدا وعلى هذا النحو شكل القمر رمزا يهب الحب والعطاء والأمل والجمال كما قلنا للناس جميعا . وهذا يعني أن الدال (القمر) خرج عن طابعه الوصفي ليحمل دلالة شعرية جديدة ((لان الفنان - كما تقول نازك – يتأمل الطبيعة ويبدع منها فنه، فإذا كان في السماء قمر يملكه الوجود كله، فأن في وسع الفنان الذي يحب ذلك القمر أن يصنع نماذج منه في قصائد وصور)) (٧٩)

كما حملت الغلام (وهو غلام يختلف عن أقرانه) مدلولا آخر هو الإنسان المبدع الشاعر على وجه التحديد وحتى ثورة أهالي القرية مطالبين بحقهم العام بالقمر بدت رمزا يجسد الرغبة في انتزاع ما هو عام أو حق لهم .

بنية الرمز في النص الشعري خلق إبداعي لن يتساوى فيه اثنان، والسبب بذلك راجع إلى النص الشعري نفسه، لأن الذي يميز هذا النص ليس مضمونه مهما بلغ هذا المضمون من جده، وإنما هو بنيته أن (نظمه) بالمعنى الذي كان يقصده الجرجاني وحازم القرطاجي .

ولما كان المبدع يستقطب اللغة ويسخرها كي تقول ما لم تتعود أن تقوله، فأن اختلاف دلالة الكلمة الواحدة بين قصيدة وأخرى، بات أمرا مسلما به .

أما النص الشعري الذي اعتدنا أن نطلق عليه مصطلح (القصيدة)فهو بناء متكامل الأجزاء موحد الأنحاء شمولي التجربة .

فالنص الشعري في أثناء إنتاجه يخرج بصيغة رسالة من بين يدي مؤلفه بصفته مرسلا، فينتقل الى يد المتلقي (القارئ) بصفته مستقبلا.

ليبدأ النص –الرسالة- رحلة جديدة مع تجربة جديدة هي تجربة التلقي حيث تتفاعل مع أوتارها خيوط وكلمات ذلك النص المبتدع وتشكيلاته الخاصة فتخرج وهي تحمل تصورات لمعاني إنسانية وحياتية تنسجم مع أبعاد التجربة الخاصة لهذا المتلقي يصبح في الوقت نفسه منتجا لنص جديد بأبعاد جديدة .

كما أن الهوس بالطبيعة قد يكون ذلك رغبة من الشاعرة في السمو بالصوت من مستوى السماع الى مستوى المشاهدة فضلا عن (الطبيعة المتخيلة) بألوانها المتعددة وهو مظهر يعكس كلف الذات الرومانسية وميلها الكلي والمطلق الى الواقع المتخيل لا الواقع المعاش ويمثل قفز الخيال الجامح المنفلت دون أي تفكير في العودة الى ارض الواقع أبدا على ان تشخيص الطبيعة عند نازك الملائكة تمثل ظاهرة بتقنيات فنية متطورة وربما لا تكتفي بالتشخيص بل تتنقل وتنمو نحو تجسيمها وتضخيمها وخلق ما يشبه لوحات بانوراميه واسعة حية فالتوجه إلى الطبيعة على هذا النحو ظاهرة خاصة في نصوص نازك الشعرية ولا تخلو هذه الظاهرة من طبيعة ونمطية وبنية حكائيه متسلسلة فهي أشبه ما تكون بكليلة ودمنة أو ألف ليلة وليلة ولكن على ألسنة مظاهر محددة في الطبيعة .

ويمتاز الرمز في نصوص نازك الشعرية ذاتي محض لا يشاركها فيه أحد، إذ تميزت أنها استطاعت أن تنتزع رمزها الخاصة بها في كثير من القوى الغامضة التي رأتها نشطه في الكون، إلى جانب إفادتها ولكن كما رأينا على نحو جزئي من الرموز التاريخية والدينية، التاريخية والشعبية الغريبة . وهذا يعني ان هناك ما يمكن أن نصطلح عليه بالكلمات / المفاتيح التي تتحول بفعل تكرارها الدال إلى رمز له خاصيته الشعرية الدلالية التي ترقى بها الى مستوى شعري ترميزي كما هو الشأن بالنسبة للرموز المستمدة من الطبيعة كالقمر

والليل، وهذه الرموز نجدها تتكرر بشكل تلقائي على جسد النص، وهي قادرة على التبليغ اذ ينحل مفهومها الإشاري المعجمي كما هو الحال مع الليل والقمر ويؤدي حضورها وظيفة شعرية تتشابك حولها المدلولات الشعرية بشكل يضفي عليها قداسة شعرية إن صح التعبير، لان السياق الدلالي برمته يستند إليها، وتسعى الشاعرة من خلال رمزي القمر والليل الإشارية بوصفها شديدة الصلة بأعماقها إلى التعبير من خلالها عن واقعها النفسي والاجتماعي .

لقد وضعت الشاعرة في الطبيعة ثقتها الكاملة وعدتها مصدر الإلهام في شعرها ونبع قوتها الخلاقة، وكانت تفتح عوالم الخيال لها . كما رأت في القمر رمزا لقوة الشاعرة وقدرتها على تحويل العالم المادي إلى عالم من عوالم الخيال والروح والإيداع وكما رأت في الليل أن له القدرة على تحويل العزلة إلى نقيضها، فالليل من وجهة نظرها يتحول إلى صفاء ولمسات وانفتاح، فهو اذن حرية ومورد ليس له من نضوب فهي اذن كانت تعيش الليل لا كنقيض للنور، وإنما كمساوٍ جوهري له كما اشرنا إلى ذلك سابقا بتعبير دلالات الرمز والكلمة، لهذا فالتعبير بالرمز يولد الرمز حالة إشارية انفعالية نفسية تلونها دفقة الشعور التي تسيطر على الحلم، فتصبح اللغة فيها لغة عاطفية انفعالية .

وهي التعبير عن موقف معين أو مشهد بعنصر الرمز فتمتد علاقة التوازي بين الموقف المعبر عنه والرمز المعبر به وهو ما مر بنا سابقا من إيراد حكاية ذات أصول خرافية وأسطورية ومن ثم أصبحت الأسماء الواردة رموزا استعارية تعوض المدلولات المرجعية، وقد أكثرت الشاعرة من هذه الممارسة المسماة (توظيف التراث في الابداع الشعري وهي حكايات رمزية نجد لها بعدا تعليميا وفلسفيا وأخلاقيا ومن ثم الاستخدام الناجح للرمز، السكوت عن طبيعة المرموز اليه ويأتي الرمز يمنح النص كثافة لغوية وإيحائية)

الخاتمة

تناولت الدراسة رمز القمر في قصيدة شجرة القمر لنازك الملائكة ورشح عن الدراسة النتائج التالية :

أولا: أن الشعر الحديث يميل الى توظيف الرمز كما يمنح النص شيئا من الغموض ويلبي رغبة المتلقي .

ثانيا: أن الشاعرة استطاعت أن توظف الموروث الشعبي في رؤيتهم للقمر ليعطي القصيدة شيئا من التواصلية مع ذاكرة المتلقي.

ثالثا: استطاعت الشاعرة أن توظف النمط القصصي في البنية الشعرية للنص من خلال الرمزية الخاصة بالقمر.

رابعا : عملت الشاعرة من خلال التسلسل الفكري في البنية الدلالية للقصيدة على نحو الفكرة الرمزية حتى نضوجها في اخر القصيدة .

خامسا : حققت الشاعرة من خلال بنية الرمز نوعا من الترابط بين أجزاء القصيدة العنقودية .

Abstract

The moon symbol An analytical study in the text (moon tree) Nazik the Angels by Raed Jaradat

The study explores the moon as a symbol in Nazik al Malaika's poem "Tree of the Moon". The study comprises a theoretical introduction about the linguistic and idiomatic concept of symbol based on its usage in the Holy Quran, Classical and modern Arabic poetry, and literary criticism. The practical part of the study analyzes certain quotes of the poem to unveil the symbolic value of the moon. The findings of the study are highlighted in the conclusion. Descriptive analysis is the approach used in this study .

الهوامش

١ - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت – لبنان، (د.ت)،مادة رمز ٦/٢٢٢-٢٢٣.
٢ - كتاب :المعنى،الخليل بن أحمد الفراهيدي،تح :عبد الحميد هنداوي، باب :الراء دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط4 ،،2003م،ج٢/١٤٩.
٣ - آل عمران " ٤١ "
٤ - المصحف الشريف مع أسباب النزول،وفهرس المواضيع والألفاظ، تحقيق : محمد حسين الحمصي،دار الهدى،عين مليلة، الجزائر،ص ٥٥.
٥ - مختار الصحاح، الرازي، مكتبة لبنان – بيروت ١٩٨٩/ ص٢٥٥
٦ - المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مادة رمز.
٧ - المخصص ج ١ السفر الثاني ص ١٣٩
٨ - هذا الشعر الحديث، عمر فروخ، لبنان، ١٩٧٨م، ص ٥٢.
٩ - المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٩٩م، ج٢،ص ٤٨٨.
١٠ - الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، محمد فتوح أحمد، دار المعارف، مصر،ط٣، ١٩٨٤م ص٢٦٠.
١١ - فن الشعر، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص ٢٠٠
١٢ - الأدب المقارن ، غنيمي هلال، دار العودة، بيروت – لبنان،ط٣، ١٩٨٣م ص٨٩.
١٣ - مذاهب الأدب الرمزية، ياسين الأيوبي، دار الشمال، ١٩٨٧م. ص ٢-٨
١٤ - الغموض في الشعر العربي الحديث، إبراهيم رماني،ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون ،الجزائر، ١٩٩١م ص٣١٧
١٥ - التصوير والشعر، التجربة الشعورية وأدوات رسم الصورة الشعرية، عدنان حسين قاسم، ليبيا، ١٩٨٩ ص ١٢٢
١٦ - عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ط ٤ ،٢٠٠٢ ص ٨٥
١٧ - خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، المجلس الأعلى للثقافة،١٩٩٦ م ص ٢٢٠.
١٨ - F.de Saussure : Cours de linguistique générale, Payot, Paris, 1978, p. 98.
١٩ - الرمز ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، ص ٤٨
٢٠ - الرمزية في مقدمة القصيدة،احمد الربيعي،مطبعة النعمان، النجف،١٩٧٣ ص ١١
٢١ - الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، دار الكشاف، بيروت –لبنان، ١٩٤٩م، ص٧
٢٢ - الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، ص ٦
٢٣ - الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح احمد، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، ص ١٦٢.
٢٤ - نظرية التأويل الخطاب وفائض المعنى، بول ريكور ترجمة :سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي،

الدار البيضاء، المغرب، ط1 ،2003، ص،
٢٥ - الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح أحمد، ص ٤٠
٢٦ - عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، ص ٨٥
٢٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة – مصر،١٩٥٨م.
٢٨ - سورة يونس" ٥ "
٢٩ - سورة الفرقان " ٦١ "
٣٠ - سورة نوح " ١٦ "
٣١ - سورة يس " ٤٠ "
٣٢ - سورة ابراهيم " ٣٣ "
٣٣ - سورة الرعد " ٢ "
٣٤ - سورة النمل " ١٢ "
٣٥ - لسان العرب، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور، دار صادر، د.م، د. ط، ٢٠٠٣م، ج ١٢، (مادة القمر)
٣٦ - سورة نوح " ٢٢-٢٣ "
٣٧ - التاريخ العربي القديم، ديتلف نيلسون، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٥،ص٢٠٩.
٣٨ - التاريخ العربي القديم، ديتلف نيلسون،ص٢٠٧.
٣٩ - البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م،ج ٣٤/١.
٤٠ - سورة البقرة "١٨٩"
٤١ - مجمع البيان في تفسير القران، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي،مطبعة العرفان، صيدا، ط١، ١٩٣٥،ج١/ ٢٨٤
٤٢ - ديوان، عنتره بن شداد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،(د.ت) ص ٥.
٤٣ - الاغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب، بغداد، (د.ت)ن ج ٢٣/٢٢.
٤٤ - ديوان جميل بثينة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م ص٢٣.
٤٥ - مدينة القمر ' ديوان وحكايات، بسام شكري، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ٢٠١٦م.
٤٦ - ألف وجه للقمر، فاروق جويدة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .، القاهرة – مصر، ١٩٩٦م
٤٧ - باب القمر، إبراهيم رمزي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة – مصر، ٢٠١٢ م
٤٨ - حديث القمر، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٨، ١٩٨٢ م.
٤٩ - مقتل القمر، أمل دنقل،بيروت، دار العودة،١٩٧٤ م.
٥٠ - المجموعة الكاملة (ديوان أنشودة المطر) دار العودة ' بيروت- لبنان، ١٩٩٧م.
٥١ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، دار العودة، بيروت – لبنان، ١٩٩٧م ص ٤٢١ .
٥٢ - اللغة العليا(النظرية الشعرية)جون كوين، ترجمة احمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة،د.ط، ١٩٩م، ص٢٧٣.
٥٣ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٢ .
٥٤ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٢ .
٥٥ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٣ .
٥٦ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٤-٤٢٥ .
٥٧ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٤ .
٥٨ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة (المقدمة)، بيروت، ط١، ١٩٦٨م، ص٧.
٥٩ - الديوان (شجرة القمر)، ص٨.
٦٠ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٦ .
٦١ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٦ .
٦٢ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٢٨.

٦٣ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص ٤٢٨-٤٢٩.
٦٤ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، ص٤٣١-٤٣٢.
٦٥ - الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة (المقدمة)، ص٨.
٦٦ - الديوان (شجرة القمر) ٤٢٨.
٦٧ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٢.
٦٨ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٣.
٦٩ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٣.
٧٠ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٣.
٧١ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٣-٤٣٤.
٧٢ - الديوان (شجرة القمر)٤٢٤.
٧٣ - الديوان (شجرة القمر)٤٣٢-٤٣٣.
٧٤ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٥-٤٣٦
٧٥ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٦-٤٣٧.
٧٦ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٧-٤٣٨.
٧٧ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٨.
٧٨ - الديوان (شجرة القمر) ٤٣٨-٤٣٩.
٧٩ - ديوان نازك الملائكة /مجلد٢/٤١١.

قائمة المصادر والمراجع

١. القران الكريم
٢. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت – لبنان، مادة رمز ٣٥٦/٥.
٣. مختار الصحاح، الرازي، مكتبة لبنان – بيروت ١٩٨٩/
٤. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، مادة رمز.
٥. المخصص ج ١ السفر الثاني
٦. هذا الشعر الحديث، عمر فروخ، لبنان، ١٩٧٨م
٧. التصوير والشعر، التجربة الشعورية وأدوات رسم الصورة الشعرية، عدنان حسين قاسم، ليبيا، ١٩٨٩
٨. خصائص الأسلوب في الشوقيات، محمد الهادي الطرابلسي، المجلس الأعلى للثقافة،١٩٩٦ م
٩. مذاهب الأدب الرمزية، ياسين الأيوبي، دار الشمال، ١٩٨٧م.
١٠. الرمز ترجمة جبرا ابراهيم جبرا،
١١. الرمزية في مقدمة القصيدة،احمد الربيعي،مطبعة النعمان، النجف،١٩٧٣
١٢. الرمزية والأدب العربي الحديث، أنطون غطاس كرم، دار الكشاف، بيروت –لبنان، ١٩٤٩م
١٣. الرمز والرمزية في الشعر المعاصر، محمد فتوح احمد، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م
١٤. لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار احياء التراث العربي، بيروت، (د.ط)، ١٩٨٨م
١٥. فن الشعر، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م
١٦. عن بناء القصيدة العربية الحديثة، علي عشري زايد، مكتبة الآداب، القاهرة- مصر، ط ٤ ،٢٠٠٢
١٧. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب المصرية، القاهرة – مصر،١٩٥٨م.
١٨. التاريخ العربي القديم، ديتلف نيلسون، ترجمة فؤاد حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٨٥
١٩. البداية والنهاية، ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م،ج ١/
٢٠. مجمع البيان في تفسير القران، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي،مطبعة العرفان، صيدا، ط١، ١٩٣٥،ج١
٢١. ديوان، عنتره بن شداد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،(د.ت)
٢٢. الاغاني، أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب، بغداد، (د.ت)ن ج ٢٢.
٢٣. ديوان جميل بثينة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ١٩٨٢م
٢٤. مدينة القمر، ديوان وحكايات، بسام شكري، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ٢٠١٦م.
٢٥. ألف وجه للقمر، فاروق جويدة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع .، القاهرة – مصر، ١٩٩٦م

٢٦. باب القمر، إبراهيم رمزي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة – مصر، ٢٠١٢ م
٢٧. حديث القمر، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، ط٨، ١٩٨٢م.
٢٨. مقتل القمر، أمل دنقل،بيروت، دار العودة،١٩٧٤ م.
٢٩. المجموعة الكاملة (ديوان أنشودة المطر) دار العودة ' بيروت- لبنان، ١٩٩٧م.
٣٠. الديوان (شجرة القمر)، نازك الملائكة، دار العودة، بيروت – لبنان، ١٩٩٧م ص
٣١. اللغة العليا(النظرية الشعرية) جون كوين، ترجمة احمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة والفنون، القاهرة،د.ط، ١٩٩م